دور الأديان في حماية البيئة

كلمة الدكتور مروان عازار

أمين سرّ كليّة اللاهوت الحبريّة في جامعة الروح القدس-الكسليك (لبنان)

مقدّمة

بناء الإنسان يحمي البيئة وحماية البيئة تبني الإنسان.

لهذا القول أبعاد لاهوتيّة عميقة الغور نجد جذورها في الكتاب المقدّس، وبالتحديد في سفر التكوين، الذي لا ينفكّ يشدّد على الارتباط الجوهري والتفاعلي بين الإنسان والبيئة.

فالله خلق الكون في ستّة أيّام وصنع الإنسان على صورته ومثاله كتتويج للخلق وتتميم له. وما هذا الترابط العضوي إلاّ تعبيراً عن أنّ رقيّ الخَلق هو من رقيّ الإنسان وأنّ تقهقر الخَلق هو من تقهقر الإنسان.

وما اختيار موضوع "حماية البيئة" في مؤتمر يعالج قضيّة "دور الأديان في بناء الإنسان" إلاّ وعياً لحقيقة هذا الارتباط بين الإنسان والبيئة، الذي لا تنكشف مضامينه اللاهوتيّة والفكريّة إلاّ على ضوء التدبير الخلاصيّ الذي حدّده الله منذ أولى لحظات الخَلق.

إنطلاقاً من هذا، سأقسم موضوعي إلى قسمين أساسيّين :

القسم الأوّل يتناول البعد الكتابي-اللاهوتي لارتباط الإنسان بالخلق وارتباط الإنسان والخلق بالله؛ وذلك من وجهة نظر مسيحيّة.

أمّا القسم الثاني فسنعالج فيه، من منطلق تعليم الكنيسة الاجتماعي، كيفيّة حماية البيئة ودورها في بناء الإنسان.

28/04 2006 20:32 FAX ☐005/012

1- البعد الكتابي-اللاهوتي

يتميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بكونه مخلوقاً على صورة الله ومثاله. وصورة الله في الإنسان هي قدرته في التسلط على الخليقة كلها، مخضعاً إيّاها بالبرّ والقداسة، مسبّحاً الله باسمها وموجّهاً معه الخليقة نحو خالقها.

دور الإنسان القياديّ هذا في الخَلق يعود إلى ما قد منحه الله اياه من قوًى وقدراتٍ عقليّة، جعلته كائناً حرّاً إراديّاً، يتمتع بكامل الصفات الإنسانيّة التي لا نجدها عند سائر المخلوقات الجماديّة، والنباتيّة والحيوانيّة...

لو عدنا إلى الرواية الثانية للخلق في سفر التكوين، لرأينا أنّ الربّ الإله قد جبل آدم من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة. (لفظة آدم، في اللغة العبريّة، "Adama"، تعني المأخوذ من الأرض.) (ولفظة "Rouah" تعني الهواء والروح.)

إنطلاقاً من هذا المعنى اللغوي الكتابي، يمكننا القول إنّ الإنسان هو "كونٌ مصغّر" (Microcosme)، إذ يحمل في ذاته عناصر الكون الأربعة الأساسيّة والتي هي أيضاً عناصر بيئيّة : كالتراب والهواء والماء والنار.

ولأنّه ترابيٌّ مأخوذٌ من التراب، يحتاج الإنسان إلى الهواء لكي يتنشّق وإلى الماء لكي يشرب وإلى النار لكي يستدفئ. وما وجود هذه العناصر في البيئة إلا دليلاً على حاجة الإنسان الماسّة لها والتي من دونها لا يستطيع أن يستمرّ في الحياة.

نستنتج من كلّ هذا أنّ الإنسان هو "بيئيّ"، ليس لأنّه بحاجة إلى عناصر البيئة فقط، بل لأنّه "بيئيّ" في "أنتروبولوجيّته"، وتركيبة الإنسان الأنتروبولوجيّة هي في جوهرها تركيبة "بيئيّة".

بما أنّه مكوّنٌ من جسدٍ وروح في وحدةٍ غير منقسمة أو منفصلة، أي من ترابٍ وهواء، يرتبط الإنسان بالكون ككائنٍ ترابيّ، ويرتبط بالله ككائنٍ "هوائيّ"، فيه نسمة

حياة، فيه قبسٌ من الألوهة، لأنه مخلوق على صورة الله ومثاله. (دون الوقوع في فخ الإزدواجيّة الأفلاطونيّة.)

من الواضح أنّ الإنسان والكون كانا في حالة انسجامٍ تامّ وتفاعلٍ إيجابيّ قبل تعدّي الوصيّة، إذ كانت الأرض تعطي ثمرها والجداول مياهها والطبيعة نسماتها؛ ولكن ما إن أكل آدم وحوّاء من الشجرة التي نهاهما الله عن أن يأكلا منها، حتّى لعن الله الأرض التي منها أخذ آدم فقال : "ملعونة الأرض بسببك، بمشقة تأكل منها طوال أيّام حياتك وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقول، بعرق جبينك تأكل خبزاً حتّى تعود إلى الأرض، لأنك ترابٌ وإلى التراب تعود."

فأصبحت الأرض الأمّ والقبر، والحشا واللحد.

لا يغب عن بالنا أيضاً أنّ الكتاب المقدس لا ينثني يعرّفنا إلى الله بواسطة صفاتٍ ورموزٍ وصورٍ "بيئيّة"، فالله هو "إلهٌ غيورٌ ونارٌ آكلة"، إنه الماء الحيّ الذي "لا يعطش أبداً شاربه" (يو 4، 14)، إنه الروح القدس الذي هو " كالريح تهبّ حيث تشاء فتسمع صوتها ولكنك لا تدري من أين تأتي ولا إلى أين تذهب" (يو 3، 8). إنّ الله هو المسيح المتجسّد الذي لبس صورة آدم الترابيّ، وسكن في حشا العذراء كتساقط نعمة الندى على الأرض العطشى. إنه نور العالم وخبز الحياة والكرمة الحقة؛ إنه الثمرة المباركة التي نبتت في مريم؛ إنه شجرة الحياة والطريق الموصل إلى الآب؛ إنه "حبّة القمح التي إن لم تقع وتمت في الأرض تبق واحدة وإن هي ماتت أتت بثمار كثيرة."

هذه التعابير والصفات اللغويّة التي نطلقها حيناً على البيئة وحيناً آخر نطلقها على الإنسان وعلى الله هي خير تعبيرٍ عن أنّ الله والإنسان والكون هم في "ثالوثيّة" ارتباطٍ تفاعليّ تؤكد على أنّ الله الخالق وحده، أصل وجود الإنسان والبيئة، قادرٌ على إعطاء المعنى الصحيح لوجود الإنسان المدعوّ دائماً وأبداً إلى أن يبني ذاته في حمايته للبيئة، وأن يحمي البيئة في بنائه لذاته.

28/04 2006 20:33 FAX
007/012

لا ريب أنّ الكنيسة قد قدّست عناصر البيئة ورفعتها إلى مستوى السرّ. فالسرّ، في مفهوم اللاهوت المسيحي، هو حقيقة ظاهرة وملموسة تكشف وتعبّر عن حقيقة إلهيّة غير ظاهرة وغير ملموسة. فالكون الذي يُرى ويُلمس هو سرّ حضور الله الذي لا يُرى ولا يُلمس. ونعمة الله التي لا تُرى ولا تُلمس، لا نستطيع قبولها إلاّ بواسطة أسرار الكنيسة التي هدفها إشراك المؤمنين في الحياة الإلهيّة غير المنظورة وغير الملموسة بواسطة عناصر طبيعيّة منظورة وملموسة.

فبمياه العماد يولد الإنسان ابناً لله الآب، ويُمسح بالزيت والميرون مسيحاً آخر ممسوحاً بمشحة الروح القدس (مَشيحا). وبالزيت عينه يُمسح المرضى المنازعون فيُشفون وبميرون القداسة يُمسح الكهنة ليشتركوا في كهنوت المسيح، الوسيط الأوحد بين الله والإنسان، وبتقديس الخبز والخمر يتّحد المؤمنون بجسد المسيح ودمه، فيصبحون ما يقبلون، أي جسد المسيح السرّي.

فبالإفخارستيّا، التي تُعتبر ذروة حياة الكنيسة وأسرارها، يتّحد الله والإنسان والكون بواسطة قربان الجسد وكأس الدمّ. فالخبز والخمر يمثّلان الطبيعة، والجسد والدمّ يمثّلان الله ويمثّلان الإنسان لأنهما جسد المسيح الإله-الإنسان ودمه. هذا ما يجعل الانسان كائناً افخارستيّاً.

28/04 2006 20:34 FAX 008/012

2- تعليم الكنيسة الاجتماعي

بعد هذا العرض اللاهوتي الذي فيه بيّنا العلاقة بين الله والإنسان والكون، نصل إلى القسم الثاني لنعالج فيه نظرة الكنيسة في تعليمها الاجتماعي إلى دور الإنسان والمجتمعات في حماية البيئة.

فيما يتعلق بالنموّ الإنساني على مختلف الصعد، تعتبر الكنيسة أنّه لا يمكن أن يكون نموّ صحيح إذا لم تُحترم الطبيعة والبيئة.

في هذا الاطار دعا البابا بولس السادس في مؤتمر Stockholm عام 1972، الى احترام الطبيعة وشدد على المسؤولية الجماعية في حماية البيئة وهو أمر يتطلب تغييراً جذريّاً في طريقة المعاطاة والتفكير. فالكلام عن البيئة، في نظر بولس السادس، يشمل الابعاد البيولوجيّة والثقافية والاجتماعيّة.

وفي هذا السياق، يشير البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته حول "الاهتمام بالشأن الاجتماعي" إلى أنّه لا يسوغ، في مناقبيّة النموّ أن يصرف النظر عن الحرمة التي يجب أن نحوط بها الخلائق التي تكوّن الطبيعة المنظورة والتي كان الإغريق يسمّونها "الكوزموس" إشارةً بالضبط، إلى النظام الذي تتميّز به. هذه الأشياء تستوجب هي أيضاً الاحترام إنطلاقاً من اعتبارات ثلاثة ينبغي أن نمعن فيها النظر.

الاعتبار الأول يقوم على الفائدة التي نجنيها عندما ندرك أكثر أننا لا نستطيع، بلا حرج، أن نستعمل على هوانا، ووفقاً لحاجاتنا الإقتصاديّة، الكائنات بمختلف فئاتها الحيّة

28/04 2008 20:34 FAX 008/012

والجامدة-الحيوان والنبات والعناصر الطبيعيّة- بل يجب على عكس ذلك، أن ننظر في طبيعة كلّ كائن وفي علاقاته المتبادلة، ضمن نظام منسّق هو "الكوزموس."

وأما الاعتبار الثاني فيرتكز على واقع يمكن وصفه أيضاً بأنه يفرض ذاته أكثر فأكثر، وهو محدوديّة الموارد الطبيعيّة، علماً بأنّ بعضها غير قابل للتجدّد، كما يقال. فإذا أقبلنا على استعمالها وكأنّها طاقات لا تنفد، وبالسيطرة المطلقة، فذلك يعرّضها لخطر النفاد، وحجبِ استعمالها ليس فقط عن الجيل الراهن ولكن خصوصاً عن الأجيال الآتية.

ويتّصل الاعتبار الثالث مباشرة بالنتائج التي يجرّها النموّ في بعض وجوهه، على نوعيّة الحياة في المناطق الصناعيّة. ونعلم كلنا أن الحركة التصنيعيّة تؤدّي دائماً أكثر، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى تلويث البيئة وما يستتبعه ذلك من نتائج وخيمة على صحّة السكان.

من الواضح إذاً، تارة أخرى، أنّ النموّ وإرادة التخطيط التي توجّهه، واستعمال الطاقات وطريقة استعمالها لا يمكن أن تتمّ بمعزلٍ عن مراعاة المقتضيات الخلقيّة. وأحد هذه المقتضيات يفرض، ولا شكّ، حدوداً في استعمال الطبيعة المنظورة. فالسلطة التي أكرم بها الله الإنسان ليست هيمنة مطلقة، ولا يسوغ التكلم عن حريّة التصرّف حتّى الإفراط أو استعمال الأشياء على هوانا. فالحدود التي فرضها الخالق نفسه منذ البدء، والتي يُعبّر عنها رمزيّاً "تحريم الأكل من ثمرة الشجرة"، تبيّن بوضوح كافٍ أنّنا، في نطاق الطبيعة المرئيّة، نخضع لشرائع ليس فقط بيولوجيّة، ولكن خُلقيّة أيضاً، لا يسوغ لنا تجاوزها بلا حرج.

28/04 2006 20:34 FAX 010/012

في رسالته "السنة المئة"، يعتبر البابا يوحنا بولس الثاني أنّه إلى جانب مشكلة الاستهلاك، تبرز مشكلة البيئة المرتبطة بها ارتباطاً وثيقاً، باعثة في النفس ذات القلق.

فالإنسان الذي تسيطر عليه رغبة التملك والتمتع، وتطغى عليه رغبة التكوّن والتطوّر، يستهلك، بطريقة متطرّفة، وفوضويّة، ثروات الأرض، بل حياته ذاتها. فالإتلاف الغبيّ للبيئة الطبيعيّة هو نتيجة خطأ انتروبولوجي منتشر في عصرنا، و يا للأسف ! وذلك بأن الإنسان، عندما يكتشف ما لديه من قدرة على تحويل العالم، بل على خلقه نوعاً ما، بعمله، يغرب عن باله أن ذلك لا يتحقق إلا انطلاقاً من الهبة الأولى والأصليّة التي جاد بها الله علينا. يخيّل إليه أنه يستطيع أن يتصرّف بالأرض على هواه، فيسخرها لإرادته بلا حساب، وكأنّ الله لم يحدّد لها صورة وهدفاً سابقين يستطيع الإنسان أن يطوّرهما لا أن يتنكر لهما. وعوض أن يضطلع الإنسان بدوره معاوناً لله في عمل الخلق نراه يغتصب محله تعالى. فيفضي بذلك إلى تفجير ثورة الطبيعة، وقد أمست خاضعة لتحكمه لا لحكمه. ومثال على ذلك كارثة "تسونامي" التي شهدناها منذ سنةٍ ونصف خلت والتي يرجّح العلماء أنها كانت نتيجة التجارب النوويّة التي أجريت في تلك البقعة من المحيط.

بالإضافة إلى هذا، تعتبر الكنيسة أنّ الأزمة البيئيّة الحاصلة تصيب الدول الفقيرة بالتحديد لأنّها معرّضة أكثر من غيرها لويلات الحروب والنزاعات، ولأنّ الوسائل الاقتصاديّة والتكنولوجيّة المعدّة لحماية البيئة غير متوفّرة لديها.

كما أنّ أزمة المياه التي تعاني منها الدول الفقيرة تسبّب الكثير من الأمراض والعاهات والآلام وقد تؤدّي في بعض الحالات إلى الموت؛ وللحد من خطورة هذه الأزمة، تشير الكنيسة إلى ضرورة الحفاظ على المياه وتوفيرها لأكبر عددٍ ممكن من سكان الكرة الأرضيّة، لأن المياه هي بطبيعتها عصب الحياة وعنصر حياتي لا غنىً عنه وهي حقّ طبيعيّ وشامل يرتكز على قيم الكرامة الإنسانيّة.

لا تُحلّ المشاكل البيئيّة ذات الطابع الكوني إلاّ إذا تعاونت الدول في ما بينها من أجل استثمار أمثل وأفضل للثروات البيئيّة والطبيعيّة.

خاتمة

المعرفة لا تعني الاستغلال. يقول القديس أغوسطينوس "نعرف بقدر ما نحبّ". بهذه المعرفة التي تندهش أمام الخلق وتحبّ، يحترم الانسان كينونة الخلق والمخلوقات ويشارك في حياتها.

لا نريد أن نعرف لنستغلّ وندمّر، بل أن نعرف لنشارك ونحبّ. هذا ما أسمّيه 'المعرفة المشاركة'. هكذا تضحي معرفتنا ذاتها علاقة حيّة. تغدو بها الطبيعة والبيئة شريكة لنا في الحياة، هذه الحياة التي تحملنا ونحملها وقد ننساها في كثير من الأحيان رغم أنها هي الجوهر.

ألمعرفة التي تحبّ تستبدل المعرفة التي تستغلّ الارض والبيئة بشكل قاسٍ وغير مسؤول، الى معرفةٍ يغدو فيها الانسان والكون أبناء جماعةٍ واحدة هي جماعة الحياة. عندما نؤمن ونفهم بأنّ الله خلق الكون فهذا يعني أنّا نسلم بأنّ الله عندما سلّط الانسان على الأشياء والكائنات لم يعطه ضوءً أخضر ليستغلّ ويدمّر ما خلقه الله. لا بل بالعكس، ليجمّل ويبدع. على الأنسان أن يسهر على الكون، هذه الوديعة التي نالها من الله الذي خلق الكون بحبّ والذي يحبّ كلّ مخلوقاته دون استثناء. عندما نؤمن بأنّ الله خلق الكون، نسلم أيضاً بأنّ للكون بعداً غير منظور، بأنه سرُّ حضور الله الذي لا يُرى. واذا كان الله، كما يقول القديس بولس في رسالته الاولى الى اهل قورنتس، "ليس اله فتنةٍ بل اله سلام" (1 قو 14، 33)، فالانسان، بصفته مخلوقاً على صورةِ الله ومثاله، مدعوّ الى صنع سلام مع خالقه وبالفعل ذاته مع الطبيعة والانسان. شراكة ثالوثيّة تُبنى على الحقيقة والحق والحياة من أجل الحياة.

وأنهي كلمتي مع الشاعر سعيد عقل قائلاً:

غنّت غنوج اللون بيئتنا المخمل

ثوبٌ أنا للكون صنُنه ولا أجمل

28/04 2006 20:35 FAX 012/012